﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١١٢﴾ [الأنبياء: 112]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التّوجّه إلى الله تعالى للحكم بالحقِّ بين دعاة الإيمان ودعاة الكفر

بيّنت الآيات السّابقة دعوة الرّسول ﷺ إلى الإيمان والتّوحيد، ووجَّهَ أنَّهُ خطابه، مستنكرًا ما عليه النّاس من الَّذين لا يؤمنون بالتّوحيد، وبرسالات الأنبياء، وذكّرهم بوعيد الله، وأنّه آتٍ لا محالة، ثمّ بعد هذا كلّه؛ ناسبَ أنْ يتوجّه إلى الله بالدّعاء، وطلبِ الحكم بالحقّ، بين دعاة الإيمان والتّوحيد من جانبٍ، ودعاة الكفر والعصيان من جانب آخر.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱحۡكُم﴾: (حكم) أصْلٌ واحِدٌ، وهو المَنْعُ، وأوَّلُ ذلكَ الحُكْمُ، وهو المَنْعُ مِنَ الظُّلْمِ، وكُلُّ شيْءٍ مَنَعْتَهُ مِن الفَسادِ فقد حَكَمْتَهُ وأحْكَمْتَهُ [1]، والحُكمُ أيضًا: القَضاءُ والفَصْلُ، تَقولُ: حَكَمْتُ بيْنَهُما إذا قَضيْتُ، والمراد بالحُكم في الآية: القَضاءُ والفَصْلُ، وهو تَعْيينُ نَفْعٍ أو ضُرٍّ للغيْرِ على أساسٍ من الحقِّ والصَّوابِ.

2) ﴿ٱلۡمُسۡتَعَانُ﴾: الاسْتِعانَةُ: مَصْدَرُ اسْتَعانَ، وهي طَلَبُ العَوْنِ، والمُؤازَرَةِ في الأمْرِ، والعَوْنُ: اسْمٌ بمعنى المُساعَدَةِ على الأمْرِ، يُقال: اسْتَعَنْتُهُ، واسْتَعَنْتُ بِهِ، فَأعانَني [2]، والإعانَةُ تَسهيلُ فِعْلِ شيءٍ يَشُقُّ ويَعسُرُ على المُستَعينِ وحدَه [3]، والمُرادُ بالمُستَعان في الآية: المطلوبُ منه العون، وهو الله تعالى.

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حكم).
(2) ابن سيده، المحكم، والمطرزي، المغرب في ترتيب المعرب، والفيومي، المصباح المنير: (عون).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 184.

3) ﴿تَصِفُونَ﴾: وصَفْتُهُ أصِفُهُ وصْفًا، أي: حلّيْتُهُ [1]، والصِّفة: الحالةُ الَّتي عليها الشّيءُ من حِلْيَتِه ونَعْتِه، والوَصفُ قد يكون حَقًّا وقد يكونُ غير ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ [النحل: 116] تنبيهًا على كون ما يذكرونَه كذبًا [2]، ومعنى الوصف في الآية: الأقوالُ الدّالَّةُ عَنِ الأوصافِ؛ إذ وصفوا النَّبيَ ﷺ بصفاتِ ذَمّ كقولهم: مجنونٌ وساحِرٌ، ووصفوا القرآنَ بأنَّهُ شعرٌ وأساطيرُ الأوَّلينَ، وشَهَروا ذلكَ في دهمائهم لتأْليبِ النّاسِ عليهِ [3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تفويض الأمر إلى الله وتوقُّع الفرَج منه والاستعانةُ به وحده تعالى

قال مُحمَّدٌ ﷺ داعيًا رَبَّه: ربِّ افصل بيني وبين من كذَّبني من مشركي قومي، وكفرَ بكَ وعبدَ غيرك، بإحلال عذابك ونقمتك به بالعدل الَّذي يقتضي تعجيلَ العذاب به، وتشديدَهُ عليه، وربُّنا المتَّصِفُ بالرَّحمةِ الواسِعةِ هو وحْدَه الَّذي نَطلُبُ منه العَونَ عليكم - أيُّها المُشرِكونَ - على ما تَفتَرونَه عليه وعلى رَسولِه مِن الوَصفِ الباطِلِ [4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة الالتفات في الآية الكريمة:

طلب الحكم من الرّسول

في قوله تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ﴾ التفاتٌ؛ إذ التفت من الخطاب إلى الغائب؛ لبيان لجوء الرّسول إلى اللّه تعالى، بعد أن عجزت المحاجّة عن تقويض ما هم فيه من التّعنّت والإعراض، فيكشف لنا الالتفات عن مشهد الرّسول ﷺ، وهو ملتجئٌ إلى اللّه تعالى يطلب منه الحكم بينه، وبين قومه من المعرضين، وهي

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وصف).
(2) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز: 5/ 223.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 177.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 445، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 351، والمراغي، تفسير المراغي: 5/ 223.

صورةٌ حاملةٌ لمشهد وعيدٍ وتخويفٍ، وفي الالتفات تنشيطٌ للذِّهن وتطريةٌ للسامع.

سرُّ فصل هذه الآية عمّا قبلها:

التّلويح بالعاقبة وبحكم الله

قوله تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ﴾؛ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنَّه قيل: فما كان قولُ الرَّسول الشَّفوق على الأمَّة حين سمع هذا الخطاب؟ فقيل: قال مبتهلًا إلى الله تعالى: ﴿رَبِّ﴾ أي؛ أيُّها المحسنُ إليَّ في نفسي وأتباعي بامتثال أوامرك واجتناب نواهيك ﴿ٱحۡكُم﴾ أي أنجز الحكمَ بيني وبين هؤلاء المخالفين ﴿بِٱلۡحَقِّۗ﴾ أي بالأمر الَّذي يحقُّ لكلٍّ منّا من نصرٍ وخذلان على ما أجريته من سنَّتك القديمة في أوليائك وأعدائك[1].

دلالة تعدُّد القراءات في قوله ﴿قَٰلَ﴾:

تنوّع المعاني بين الخبر والإنشاء

قرأ حفص عن عاصم ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ﴾ بألفٍ، وعليه فالجملة خبريَّةٌ، وقرأ الباقون ﴿قُلۡ رَبِّ ٱحۡكُم﴾ بغير ألف[2]، وعليه فالجملة إنشائيَّةٌ، فمَنۡ قَرَأَ ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم﴾ فالمعنى: قال النّبيُّ ﷺ: ﴿رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ﴾، مسألةً سألها ربَّه، ومَنۡ قَرَأَ ﴿قُلۡ رَبِّ﴾ فهو تعليمٌ من الله لنبيِّه ﷺ أن يسأله الحكم بالحقِّ، وجاء في التّفسير: أنّه كان من مضى من الرّسل يقولون: ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف: 89]؛ ومعناه: احكم، فأمرَ الله نبيَّه ﷺ أن يقول: ﴿رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ﴾[3]، ومن بلاغة القراءتين هنا جمعهما بين الأمر وامتثاله، فالله ﷻ أمر نبيَّه ﷺ بالقول، وأتت القراءة الأخرى بالفعل الماضي لتؤكد امتثاله وتبليغه لما أُمر به.

سرُّ التَّعبير بالرُّبوبيَّة ﴿رَبِّ﴾ دون الألوهيَّة:

الحكم بين النّاس من أفعال الرّبوبيَّة

الرّبُّ هو الخالق المُربّي المُداري لعباده سبحانه، والرّازق لهم،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 513.
(2) ابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 471، وابن الجزري، النشر: 2/ 325.
(3) الأزهريّ، معاني القراءات: 2/ 173.

والمدبِّر لأمورهم، واللّه تعالى الحاكم بين عباده، فذُكِرَ الرّبُّ لأنّ سياق الآية يستدعي ذِكر الرّبِّ دون الإله، فلو كان مقامَ عبادةٍ لذكر الألوهيّة، لكنّه ذكر الرّبوبيّة؛ لأنه يدعو ربَّه بالحكم بينه وبين قومه.

دلالة حذف أداة النِّداء مع ﴿رَبِّ ٱحۡكُم﴾:

قـرب الـرّسـول ﷺ مـن الـرّبّ سبحانه

حذف أداة النداء في قوله: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ﴾؛ إيجازًا وقربًا من اسم الرّبّ العظيم سبحانه، دالًّا على سرعة استجابة الدّعاء من الرّسول ﷺ، ومن أحق بأن يُستجابَ دُعاؤه إن لم يكن رسول اللّه ﷺ، فكُلّ دُعاء نبويّ مذكور في القرآن مُستجابٌ مُحقّق.

دلالة التعبير بالحكم في قوله: ﴿ٱحۡكُم﴾ دون (اقض):

الـحُـكـم فصل الأمـر والـقضاء البتّ فيه

(القَضاء)؛ يَقْتَضي فصل الأمر على التَّمام من قَوْلك قَضاهُ إذا أتمَّهُ وقطعَ عمله، ومِنْه قَوْله تَعالَى: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ﴾ [الأنعام: 2]؛ أي: فصلَ الحكم بِهِ، وقوله: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الإسراء: 4]؛ أي: فصلنا الإعْلام بِهِ، وقوله: ﴿قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ﴾ [سبأ: 14]؛ أي: فصلنا أمر مَوته، وقوله: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [فصلت: 12]؛ أي فصلَ الأمر بِهِ.

أمّا الحكم فيَقْتَضي المَنْعَ عَن الخُصومَة، من قَوْلك: أحكمته إذا منعته، ويجوز أن يُقال: الحكمُ فصلُ الأمر على الأحْكام بِما يَقْتَضيهِ العقل والشَّرْع، فإذا قيل: حكمَ بِالباطِلِ فَمَعْناه أنَّهُ جعلَ الباطِل مَوضِع الحقِّ، ويُسْتَعْمل الحكمُ في مَواضِعَ لا يُسْتَعْمل فيها القَضاءُ، كَقَوْلِك: حُكْمُ هَذا كَحُكم هَذا، أي هما متماثلان في السَّبَب أو العلَّة أو نَحْو ذَلِك[1].

دلالة الأمر في قوله: ﴿ٱحۡكُم﴾:

طـلـب تعجيل الـعـذاب والـتّـشـديـد عليهم

قوله: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم﴾؛ على صيغة الأمر، أي: اقضِ بيننا وبين أهل مكةَ بالعدل المقتضي لتعجيل العذابِ والتشديد عليهم،

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 190.

وقد استُجيب دعاؤه ﷺ حيث عذبوا بِبَدْرٍ أيَّ تعذيبٍ[1]، فالأمر هنا للدعاء.

دلالة حذف المتعلق الثاني للفعل ﴿ٱحۡكُم﴾:

طـلـبُ الحُـكـم بالحقِّ

حُذف المتعلّق الثاني لفِعل ﴿ٱحۡكُم﴾ لتنبيههم إلى أن النّبيّ ﷺ على الحقّ، وأنّهم على الباطل، فإنّه ﷺ ما سألَ الحكمَ بالحقِّ إلّا لأنَّهُ يريده؛ أي: احكم لنا أو فيهم أو بيننا[2].

فائدة قوله ﴿رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ﴾:

الحكم بما وعد الله

ليس المرادُ بالحقِّ هنا نقيضَ الباطل؛ بل هو ما وعدَهُ الله تعالى إيّاه، من نصرِ المؤمنين، وخذلانِ الكافرين، ووعدُه لا يكونُ إلّا حقًّا، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف: 89]، أو أنَّ قوله: بالحقِّ؛ تأكيدٌ لما في التّصريح بالصِّفة من المبالغة وإن كانت لازمةً للفعل، ونظيرُه في عكسه من صفة الذمِّ قولُه تعالى: ﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾ [آل عمران: 112][3].

دلالة الباء في قوله ﴿بِٱلۡحَقِّۗ﴾:

حُكم الله حقٌّ مطلق

الباء في قوله تعالى ﴿بِٱلۡحَقِّۗ﴾ للملابسة[4] والإلصاق، فحكم الله كلّه حقّ؛ بل هو الحقُّ المطلق، فالله تعالى هو الحقّ المُبين، وهو خالق الكون والأحياء سبحانه.

سرُّ ذكر القيد ﴿بِٱلۡحَقِّۗ﴾ والله لا يحكم إلّا بالحقّ:

تـضـمَّـنَ دعـاء الـرّسـول وعـيـدًا للمنكرين

دلّ ذِكر قيد ﴿بِٱلۡحَقِّۗ﴾ في قوله: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ﴾ - والله لا يحكم إلّا بالحقِّ - على ما تضمّنه الدّعاء من الوعيد والتّهديد، وأنّ المنكرين هم على الباطل، فإنَّ ذِكر الحقّ تهديدٌ لهم بما سيُصيبهم من العقوبة على إنكارهم للحقِّ، وهو دينُ الله ورسالةُ نبيِّهِ ﷺ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 89.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 176.
(3) زكريا الأنصاري، فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، ص: 380.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 176.

دلالة الواو في قوله: ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾:

خير التّكلان الاستعانة بالرحمن

عُطِفتْ جملة: ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ﴾ على جملة: ﴿رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ﴾؛ وكلتاهما مقولُ القول للفعل (قال)، وهو مما يَلْفِتُ إلى رحمته ﷺ بالأمّة، حيث لم يطلبْ لها الوعيد، وإنَّما قرنَ في طلبه بين الوعيد والرَّحمة، وكفى بذكر اسم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ دالًّا على سعة رحمته سبحانه.

دلالة تعريف المسند إليه بالإضافة:

الاعتزاز بالرّبوبيّة وتعظيم شأنها

تعريف المسند إليه بالإضافة في قوله: ﴿وَرَبُّنَا﴾؛ لتضمُّنها تعظيمًا لشأن المسلمين بالاعتزاز بأنَّ الله ربُّهم[1]، فالمؤمن يشعر بطمأنينة النّداء لربّه، وضمير المتكلِّم المشارك للنبيِّ ومن معه من المسلمين، وفيه تعريضٌ بالمشركين بأنهم ليسوا من مربوبيَّة الله في شيءٍ حَسْبَ إعراضهم عن عبادته إلى عبادة الأصنام، كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ١١﴾ [محمد: 11][2].

دلالة الوصف بـ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾:

من أسلوب القرآن الجمع بين الوعد الوعيد

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ عطف بيان من ﴿وَرَبُّنَا﴾؛ لأنَّ المراد به هنا الاسم لا الوصف ردًّا على المشركين؛ لأنَّهم أنكروا اسم (الرحمن)، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورَۢا ٦٠﴾ [الفرقان: 60][3].

وقد يكون ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ خبرًا للمبتدأ ﴿وَرَبُّنَا﴾ أي كثير الرَّحمة على عباده[4]، فيكون في الآية تهديدٌ للكافرين المعاندين، وترغيبٌ في سعة رحمة الله تعالى لمن استجاب له ورجع إليه سبحانه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 176.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 176.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 176.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 102.

سرُّ تلقين الله تعالى لنبيّه هذا الدُّعاء:

الالتجاء إلى الله حقيقة الإيمان

على قراءة ﴿قُلَ رَبِّ ٱحۡكُم﴾ بغير ألف[1]، فإنّ المستفاد من الأمر هو تلقين الله تعالى نبيّه هذا الدّعاء الّذي يتضمَّن طلبَ الحُكم بين النّاس بالحقِّ فيما اختلفوا فيه، ثمّ بيانَ رحمة الله، وأنّه هو سبحانه جهةُ الاستعانة على ما يصفه المُعرضون عن دين الله والمنكرون والملحدون، وفي تلقين هذا الدُّعاء للرّسول مَعانٍ عدّة منها بيان أنَّ رسول الله ﷺ بشرٌ لا عِلم له بالغيب، وأنّه يطلب رحمة الله بالنّاس جميعًا ويقدّمها على عذابه وعقابه، فهو رحمةٌ مهداةٌ لهم، وسبقَ قولُ الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾، وفي دُعائه تعليمٌ للمؤمنين أنَّ الاستعانة تكون بالله، وباللُّجوء إليه سبحانه في أمور الدّعوة إلى دين الله.

سرّ تكرار لفظ الرّبوبيَّة في الآية:

التّلذّذ والإيمان بذكر الرّبّ

في قوله: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ كرّر الرّبوبيَّة في الآية الكريمة، تلذّذًا بمعانيها وقناعةً وعقيدةً بصحَّة اللّجوء الى الرّبِّ سبحانه الخالق المقدّر الحاكم بين النّاس المؤيّد بنصرهِ المدافع عن الّذين آمنوا بالحقِّ والعدل، ولأنه سبحانه هو الحكم وهو الّذي يُستعان به في كلِّ أمر.

سرُّ تقديم الرّحمة:

تعظيم شأن المؤمنين ورحمةُ الله بهم

﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾؛ أي كثيرُ الرحمة على عباده ثم قال: ﴿ٱلۡمُسۡتَعَانُ﴾، فقدّم الرّحمة على طلب العون عليهم وعلى ما يفترون، وفائدتُها تقديم طلب الرّحمة للمؤمنين، فهم المُقدّمون عند الله تعالى، تعظيمًا لشأنهم وشأن إيمانهم، واختصاصهم بالرّحمة.

سرُّ التَّعبير بـ ﴿ٱلۡمُسۡتَعَانُ﴾:

التعبير في قوله: ﴿ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾؛ أي: المطلوب منه

(1) ابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 471، وابن الجزري، النشر: 2/ 325.

المعونة، فدلّ على طلب الاستعانة من الله على الَّذين يتجاوزون حدوده ويُنكرون الرّسالة وما جاء به الوحي، وطلبُ العونِ من الله إمّا لغاية هداية المعاندين والمنكرين، وإمّا ليكُفّ الله عن المؤمنين شرّهم ومكرهم.

طلب العون من الله وكفّ شرّ المنكرين

دلالة (أل) التّعريفيّة في ﴿ٱلۡمُسۡتَعَانُ﴾:

تعريف ﴿ٱلۡمُسۡتَعَانُ﴾ لإفادة الكمال في الإعانة فهو المستعان به على الحقيقة لا سواه، فلا أحد يعين ولا أحد يقدر على فعل ما يريد إلّا هو سبحانه وتعالى.

دلالة التّعبير بـ ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله: ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾:

في قوله: ﴿ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾؛ ﴿عَلَىٰ﴾ للاستعلاء؛ حقيقيًّا كان أم مجازيًّا؛ جاء في كتاب سيبويه: "أمّا (على) فاستعلاء الشيء"[1]، ولفظها يدلّ على ذلك فهي من العلوّ، وهي هُنا استعلاءٌ مجازيٌّ، فكأنّ الاستعانة بالله علَتْ على ما يصفون وهيمَنتْ عليه. "وقد يُستعمل (على) في الأفعال الشّاقّة المستثقلة، تقول: قد سرنا عشرًا وبقيت علينا ليلتان"[2].

الاستعانة بالله على ما يصفون وما ينكرون

دلالة حذف المتعلّق في قوله ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾:

قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾؛ أي: على ما تصفون من التّكذيب والافتراء، والحجج المُجانبة للحقّ، ممّا يوحيه الشّيطان إلى أوليائه، قال تعالى: ﴿وَلِتَصۡغَىٰٓ إِلَيۡهِ أَفۡـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [الأنعام: 113]، فحذف متعلّق (تصفون) لشمول أنواع ما يأتي به المُعارضون المُعاندون من الحجج وما يُنكرون وما يقترفون، وللدّلالة على كثرة أوصافهم الباطلة الَّتي أتوا بها، وما سوّلت لهم أنفسهم وأفكارهم، وعلى عظيم ما يرتكبون من الإثم بهذا الوصف المُنكر.

افتضاح المنكرين للرّسالة بما يصفون

(1) سيبويه، الكتاب: 2/ 310.

(2) ابن جنّي، الخصائص: 2/ 272.

دلالة التّعبير بـ ﴿مَا﴾:

كـثرة الأقـوال والأفـعـال المجانبة للحقّ

الاسم الموصول ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا تَصِفُونَ﴾؛ تقع على ذوات ما لا يعقل، وعلى صفات من يعقل، كما في قوله هنا ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾، و(ما) تفيد الاتّساع، جاء في بدائع الفوائد: أنّ (ما) "لا تخلو من الإبهام أبدًا، ولذلك كان في لفظها ألِفٌ آخرة لما في الألِفِ من المدّ والاتّساع في هواء الفم، مشاكلةً لاتّساع معناها في الأجناس"[1]، فتُظهر (ما) هُنا سعة ما يصفون من الأقوال والأفعال.

سرُّ التّعبير بقوله ﴿تَصِفُونَ﴾ دون (تقولون):

الأقـوال الّـتي يـصـفـون بـها الدّين والرّسول بما يسوء

ومعنى ﴿مَا تَصِفُونَ﴾ وما تَصدر به أقوالكم من الأذى لنا، فالوصف هنا هي الأقوال الدّالّة على الأوصاف، وهم وصفوا النّبي ﷺ بصفات ذمٍّ كقولهم: مجنون وساحر، ووصفوا القرآن بأنه شِعرٌ وأساطير الأوّلين، وشهَروا ذلك في دهمائهم لتأليب الناس عليه[2].

دلالة التعبير بالمضارع ﴿تَصِفُونَ﴾:

تجدُّد أوصافهم بما يسوء

التّعبير بالمضارع في قوله: ﴿مَا تَصِفُونَ﴾ أفاد التّجدّد والاستمرار على ما يصفون من أوصافٍ مؤذيةٍ لأهل الإيمان كقولهم (أساطير الأوّلين)، واتّهامهمُ النّبيّ ﷺ بالشِّعر والكذب والسِّحر.

بلاغة ختام السّورة بهذه الآية مع مراعاة مطلعها:

بـيـان تـنـاسـب الآيـــة مـع مطلعها

خُتمت هذه السّورة بقوله: ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ خطابًا لأولئك الّذين أنكروا الرّسالة، وفيها من الاستعانة بالله عليهم، وعلى مكرهم ووصفهم بغير حقٍّ بهتانًا وزورًا، وفي هذه العبارة تناسُبٌ دقيقٌ مع مطلعها الّذي قال تعالى فيه: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ۝١﴾ [الأنبياء: 1]؛ فبيّن أنّ أمر الله في عقوبة المنكرين المُعارضين لدين الله ورسالاته آتٍ لا محالة، وهو قريبٌ، ومدحَ المؤمنين

(1) ابن قيّم الجوزيّة، بدائع الفوائد: 1/ 131.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 177.

على الصّبر والاستعانة بالله، فأتى في آخر السّورة بعبارة الاستعانة فقال: ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾، فقد انطبق آخرُ السّورة على أوّلها بذكر السّاعة ردًّا على قوله ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ [الأنبياء: 1] وذكر غفلتهم وإعراضهم، وذكر القرآن الّذي هو البلاغ، وذكر الرِّسالة بالرَّحمة لمن نسبوه إلى السِّحر وغيره، وتفصيل ما استعجلوا به من آيات الأوّلين وغير ذلك، وقام الدَّليلُ بالسَّمع بعد العقل على تحقُّقِ أمر السّاعة بأنه سبحانه لا شريك له يمنعه من ذلك، وأنه يعلم السِّرَّ وأخفى، وهو رحمن، فمن رحمته إيجاد يوم الدّين ليجازي فيه المحسنَ بإحسانه، والمسيءَ بكفرانه، وفي ذلك أعظم ترهيبٍ في أعلى حاثٍّ على التَّقوى للنَّجاة في ذلك اليوم[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميّةُ:

الحقّ والعدل والقسط:

الحقّ هو الثّابت الّذي لا يسوغ إنكاره؛ من حقَّ الشّيءُ، إذا ثبتَ ووجبَ، وفي اصطلاح أهل المعاني: الحكم المطابق للواقع، يُطلق على الأقوال والعقائد والأديان والمذاهب باعتبار اشتمالها على ذلك، ويقابله الباطل، وقد يطلق الحقّ على الموجد للشَّيء، وعلى الحكمة، ولما يوجد عليه، كما يقال: الله حقٌّ، وكلمته حقٌّ، وقد يراد به الإقبال على الله تعالى بلزوم الأعمال الصّالحة المطابقة للعقائد المطابقة للواقع، وبالباطل: الالتفات عنه إلى غير ذلك ممّا لا يُجدي نفعًا في الآخرة[2]، فاصطفى النَّظمُ الكريمُ الأليقَ بالسّياق.

الحقُّ هو الحكم المطابق للواقع في كلّ شيء

والعدل: نقيضُه الجَور، والعين والدّال واللّام أصلان صحيحان؛ لكنّهما متقابلان كالمُتضادّين، أحدهما يدلّ على استواء، والآخر يدلّ على اعوجاج[3].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 516.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 193.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 2/ 229.

والقسْط هو العدْل، ومِنْه سمّي المِكْيال قسطًا؛ لِأَنَّهُ يُصوِّر لَك العدْلَ في الوَزْن حَتَّى تراهُ ظاهرًا وقد يكون من العدْل ما يخفى، ولِهَذا قُلْنا إنّ القسْط هو النَّصيبُ الَّذي بيّنت وجوهه وتقسَّطَ القَوْم الشّيْء تقاسموا بِالقِسْطِ[1].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 234.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والثلاثون،
سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والثلاثون، سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 34 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-76-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 34 : المجلد الرابع والثلاثون، سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-76-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-3990244 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»